والماء قوة كهربائية مغنطيسية ويشترط ان تحفظ هذه القوة لمنفعة الفرد الذي تولدت منهُ ويكون حفظها بواسطة غلاف فاصل وبغير هذا الفاصل لا توجد الحياة مهما تولد من القوى في الاجسام لان هذه القوى توزع في الفضاء وتنتقل الى الأجسام الاخرى المحيطة بها . ولم يثبت الى الآن ان للخلايا نفسها غلافاً كهذا ولكن يظهر من بعض التجارب ان لها شيئاً من ذلك

اما البروتوبلازم فمن المواد التي لا هي حية ولا هي ميتة بل بين بين . فاذا اجتمع مقدار منهُ واحاط بهِ غلافٌ وتكونت فيهِ الكهربائية صار حيًّا والاَّ فلا

ومن المعلوم ان المواد الجامدة لا تتحول الى مواد آلية حيوانية حية مباشرةً بل لا بد من تحويلها اولاً الى مواد آلية نباتية لان للنبات خواص يقدر ان يحول بها المواد غير الآلية الى آلية . اما الحيوان فلا يقدر على ذلك بل لا بد لهُ من اخذ هذه المواد من النباتات او الحيوانات الاخرى . وعليهِ فلا نقدر ان نضع تعريفاً للحياة يشمل الحياة الحيوانية والحياة النباتية وبعض المواد حيّ كالحيوان وبعضها ميت كالجماد وبعضها بين الحياة والموت كالبروتوبلازم

الكوليرا والصحة في مكة المكرمة[1]

[لخصنا المقالة التالية من رسالة فرنسوية للدكتور قاسم بك عن الدين المفتش العام للصحة والكورنتينات في الاستانة فانهُ اقام سنوات في الحجاز ودرس الاوبئة والاحوال الصحية فيهِ فرأينا ان نتحف قرّاء العربية بالفوائد التي وردت في رسالتهِ هذه]

الامراض المتسلطة على مكة

الامراض الصدرية كالنزلة الشعبية وذات الرئة كثيرة في الشتاء لكن التقرّن الرئوي نادر

ضربة الشمس والاحتقانات الدماغية كثيرة في زمن الحرّ الشديد في عرفات ومنى والمدينة نفسها

امراض العين والكبد كثيرة ايضاً لكن الجذام نادر جدًّا ولم ارَ الاَّ مجذوماً واحداً في مدة خمس سنوات

امراض القناة الهضمية تشاهد على مدار السنة لكنها تزداد في مدة الصيف فتأخذ

(1) Dr. Cassim Izzeddine. Le Choléra et l'Hygiène à La Mecque. Paris 1909.

الدوسنطارية شكلاً وبائياً وتكثر الوفيات بها لاسيما بين الاطفال . وأرى السبب في ذلك ما يحدث من الضعف في القناة الهضمية لشدة الحر فيؤثر فيها اقل تغيير كاكل الاثمار الفاسدة والسمك العفن الذي يؤتى به من جدة

الحميات الغيلية كثيرة ولاسيما في الصيف ويصعب معرفة اسبابها لان الهواء جاف ولا مستنقعات في المدينة . وقد شاهدت عدة حوادث من النوع الخبيث انتهت كلها بالموت ماعدا حادثة واحدة . ولا ريب عندي في صحة التشخيص فان الحمى الخبيثة التي شاهدتها في البصرة اعراضها كاعراض هذه تماماً ولا نزاع في ان الحميات الغيلية كثيرة في البصرة

ولا مستنقعات في مكة لكن الرطوبة كثيرة حول الينابيع والآبار حيث يقع الماء وفي بعض النواحي مياه راكدة لكنها لا تشبه المستنقعات ولا بدّ من ان البعوض يلقي بيوضه في مثل هذه الاماكن . وحدث مرّة ان الحمى الملارية تفشّت بكثرة في محلة السليمانية فبحثت عن اسبابها ووجدت هناك مصنعاً كبيراً كانوا يملأونه ماء قبل قدوم الحجاج . فعند ظهور الحمى كان في هذا المصنع مقدار قليل من الماء عليه طبقة من الخزّ واظن ذلك سبب الحمى

اما الجدري فانه يتخذ شكلاً وبائياً في مكة ولم تمرّ سنة من السنين التي اقمتها هناك الاّ وحدث وباء منه وفي سنة ١٨٩٥ كانت الوفيات به ٧٧٠ . ولما رأيت ذلك اشرت على الحكومة بانشاء معمل لمادة الجدرية فانشأت معملاً كان له فائدة عظيمة لبلاد فكان العرب يقصدونه لاخذ الانابيب والتطعيم وكنا نرسل الانابيب الى المدينة المنورة والطائف وجدة وينبع

ثم اتى المؤلف على ذكر الحصبة وابي الركب والنزلة الوافدة وقال ان كثرة الوفيات في شهر مايو سنة ١٨٩٤ كان سببها الحمى الخبيثة وليس الامراض المعدية وتلويث بئر زمزم كما زعم الاستاذ بروست[1]

الكوليرا في مكة

ان الاوبئة التي ظهرت في مكة من حين الى آخر لم تدرس درساً وافياً فاخطأ المؤلفون الاوربيون في وصفها . وقد شهدت مدة اقامتي في الحجاز الاوبئة التي تفشت سنة ١٨٩٠ و ١٨٩١ و ١٨٩٣ و ١٨٩٥ ودرستها درساً مدققاً ولم اكتفِ بذلك بل جمعت من افواه الشيوخ ومن المرحوم الشريف عون الرفيق باشا الذي كان امير مكة في ذلك الحين ما قدرت ان اجمعه من تاريخ الاوبئة التي ظهرت قبل مجيئي الى الحجاز وبقيت متتبعاً لاحوال

(1) Proust. Politique sanitaire. 195-196

مكة الصحية بعد خروجي منها فاخذت اخبار الوبائين اللذين ظهرا في سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨

اما الاوبئة التي تفشت في مكة فهي هذه

١ وباء سنة ١٢٤٦ هجرية كان ظهوره في شهر ذي القعدة (ابريل ١٨٣١) وهي اول مرة عرفت فيها الكوليرا في مكة وكانت وطأتها شديدة جداً

٢ وباء سنة ١٢٥٦ (١٨٤١) ظهر في اواخر شوال (ديسمبر) وكان خفيف الوطأة

٣ وباء سنة ١٢٦٣ (١٨٤٧) ظهر في رجب (يونيو) اي خمسة اشهر قبل العيد وكان اخف قليلاً من الاول

٤ وباء سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) ظهر في ذي القعدة (سبتمبر) وكان اخف من الذي قبله

٥ وباء سنة ١٢٧١ (١٨٥٦) ظهر في ذي القعدة (يوليو) وكان خفيفاً

٦ وباء سنة ١٢٧٢ (١٨٥٧) ظهر في ذي القعدة ايضاً (اواخر يونيو واوائل يوليه وكان خفيفاً

٧ وباء سنة ١٢٧٥ (١٨٦٠) ظهر في ذي القعدة ايضاً (مايو ويونيو) وكان خفيفاً

٨ وباء سنة ١٢٨٠ (١٨٦٥) ظهر في ذي القعدة ايضاً (ابريل) وكان شديد الوطأة تكتمهم بالغوا فيه كثيراً في اوربا فزعم الاستاذ بروست ان ثلاثين الفاً من الحجاج ماتوا به في منى وقد قيل لي في مكة ان هذا الوباء كان اخف وطأة من وباء سنة ١٨٣١ ومثل وباء سنة ١٨٩٠ و ١٨٩١ فلا يمكن ان يكون عدد الوفيات في منى اكثر من ١٥٠٠ . ولا ريب ان هذا الوباء كان في غاية الأهمية ليس لشدته بل لسرعة انتشاره في جهات عديدة

٩ وباء سنة ١٢٨٨ (١٨٧٢) ظهر في شعبان (اكتوبر) اي اربعة اشهر قبل العيد ولم يكن شديداً

١٠ وباء سنة ١٢٩٤ (١٨٧٨) ظهر في ذي الحجة (ديسمبر) وكان خفيفاً

١١ وباء سنة ١٢٩٧ (١٨٨١) ظهر في ذي القعدة (اكتوبر) وكان اشد مما قبله

١٢ وباء سنة ١٢٩٨ (١٨٨٢) ظهر في ذي القعدة ايضاً (سبتمبر) وكان اخف مما قبله

١٣ وباء سنة ١٢٩٩ (١٨٨٣) ظهر في ذي الحجة (اكتوبر) وكان اشد مما قبله

١٤ وباء سنة ١٨٩٠ مسجية ظهر في ٢٨ يوليو اي في اليوم الثاني من ايام العيد وعدد وفياته ٢٥٣٨

١٥ وباء سنة ١٨٩١ ظهر في الخامس من ذي الحجة (١١ يوليه) وعدد وفياته ٢٩٤٢

١٦ وباء سنة ١٨٩٣ ظهر في ٢٥ ذي القعدة (٨ يونيو) وكان اشدها فتكاً توفي به في مكة وحدها ١٣٤٣٦ وفي ضواحيها ١٨٩٠٠

١٧ وباء سنة ١٨٩٥ ظهر في ٢٧ شوال (٢١ ابريل) وكان خفيفاً جداً عدد وفياته في مكة ٢٧٨ فقط

١٨ وباء سنة ١٩٠٢ ظهر في ذي القعدة (٢٠ فبراير) وعدد وفياته نحو ٤٠٠٠

١٩ وباء سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ ظهر في ذي القعدة (١٣ دسمبر) وعدد وفياته ٤٧٣٩

هذه هي الاوبئة التي تفشت في مكة والمشهور عند اهاليها انها انتقلت اليها من الهند اما مباشرة او عن طريق بلاد اخرى كجزيرة جاوى وبلاد اليمن وجزيرة قمران وبلاد الفرس والعراق

وقد وصلت الى النتائج الآتية من درس هذه الحوادث

اولاً لم ينشأ الوباء ولا مرة في مكة بل جاءها من الخارج

ثانياً كانت اكثر الاوبئة الشديدة في زمن الحر كوباء سنة ١٨٣١ و١٨٦٥ و١٨٩٠ و ١٨٩١ و ١٨٩٣ وبعضها في فصل الشتاء كما في سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٨

ثالثاً قد يكون الوباء خفيفاً في زمن الحر كما في سنة ١٨٥٦ و ١٨٥٧ و ١٨٦٠

رابعاً يكون الوباء خفيفاً في زمن الحر المعتدل كما في سنة ١٨٤١ و ١٨٧٣ و ١٨٧٨ و١٨٨١ و١٨٨٢ و١٨٨٣ ويكون احياناً شديداً في مثل ذلك كما في سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥١

خامساً لم يظهر الوباء قط في الاشهر الستة الاولى من السنة الهجرية اي محرم وصفر وربيع الاول وربيع الثاني وجمادى الاولى وجمادى الآخرة . وظهر مرة واحدة في رجب (١٨٤٧) اي خمسة اشهر قبل العيد ومرتين في اواخر شوال واربع مرات في ذي الحجة واحدى عشرة مرة في ذي القعدة . فيظهر جلياً ان هذا الداء علاقة بالحج فيجيء بمجيء الحجاج ويذهب بذهابهم

الوسائط التي تنتقل بها الكوليرا الى مكة

من الامور المسلَّم بها عند جميع الذين كتبوا في هذا الموضوع ان الكوليرا لا تنشأ في مكة بل تأتيها دائماً من الخارج لكنَّ الوسائل التي تنتقل بها الجراثيم من الهند الى الحجاز لم تزل على بساط البحث وقد أتيح لي ان اباحث في هذا الموضوع مع زميلي المرحوم الدكتور ڤوم والدكتور ڤرندير بلس وذلك عند ما كنا في محجر جزيرة قمران في سنة ١٨٩٦ . ثم جاء بعدنا الدكتور بوريل ودرس المسألة عينها ونشر آراءهُ في مؤلف سمَّاهُ « الكوليرا والطاعون في الحج الاسلامي [1] » وكان ملخَّص آرائهِ ان الحجَّاج القادمين من الهند يحملون في امعائهم الباشلوس الضمّي (ميكروب الكوليرا) وهو في حالة الضعف لا ضرر منهُ فاذا شربوا ماء فيهِ المكروبات الموافقة لنموه انتشر الوباء في مكة وجزيرة قمران وهذه المكروبات هي التي سمَّاها متشنيكوف مكروبات المساعدة . وقد بنى الدكتور بوريل رأيه هذا على ابحاث الدكتور ڤرندير بلس حيث وجد في قمران الباشلوس الضمّي والمكروبات المساعدة لهُ . وقال انهُ لا بد من وجود الباشلُوس والمكروبات عينها في آبار مكة ونسب تفشي الداء الى هذه الاسباب ومن الادلة التي اتى بها لاثبات ذلك ان الكوليرا ظهرت في مكة سنة ١٩٠٣ دون أن تحدث اصاباتٌ بها بين المقيمين في قمران لان هؤلاء استعاضوا عن ماء الآبار بالماء المقطَّر . فرأي الدكتور بوريل هو ان الكوليرا تنتقل من الهند الى مكة وقمران بواسطة الجراثيم الكامنة وهو ينكر بتاتاً انتقالها مع البضائع وامتعة المصابين

ولما جئت الى قمران سنة ١٨٩٦ اتيتها من مكة حيث درست هذا الداء درساً وافياً وعرفت الاحوال التي يظهر فيها والطرق التي ينتقل بها فلم تُقنعني آراء رصيفيَّ الدكتور ڤرندير بلس والدكتور بوريل ولي رأي آخر اطرحهُ على بساط البحث

ليس من السهل معرفة الباشلُوس الضمّي من شكلهِ فقط ولا دليل على ان الباشلُوس الذي وجد في قمران هو الباشلوس الضمّي عينهُ ولو كان مشابهاً لهُ تمام المشابهة فقد تأكد وجود هذا الباشلس في حج سنتي ١٨٩٦ – ١٨٩٧ ولم تحدث اصابات بالكوليرا في ذينك العامين لا في مكة ولا في قمران فلو كان هو الباشلوس الضمي عينهُ لانتشرت الكوليرا في مكة على الاقل لان اهلها لم يشربوا الماء المقطَّر . وعندي انهُ لا علاقة بين الباشلوس الكامن وانتشار الكوليرا فهذا الداء ينقلهُ الحجَّاج من بلاد حيث الداء مستوطن كما اشتدت وطأتهُ

(1) Choléra et Peste dans le Pèlerinage musulman, 1904.

في تلك المدينة وزادت الاصابات فيها وظهور الداء في قران قبل ظهوره في مكة من الادلة التي تثبت ذلك فالكوليرا تنتقل بواسطة المصابين في غالب الاحيان اما انتقالها بالبضاعة فنادر جدًّا لا يمكن اثباتهُ ويرجح انتقالها في بعض الاحيان مع امتعة المصابين

وكثيراً ما تصل البواخر الى قران ويعلن عنها انهُ لم تحدث اصابات وبائية فيها فالملاحظة الحجاج على الطريق صحية جدًّا وقد تحدث اصابات لا يعلم بها ضباط الباخرة

اما الطرق التي اشير باتخاذها لمنع انتقال الكوليرا الى الحجاز فهي هذه

اولاً يجب عزل الحجاج عند ما تشتد وطأة الكوليرا في بياي ووضعهم تحت المراقبة خمسة ايام قبل سفرهم تظهر في اثنائها امتعتهم

ثانياً تراعى الاحوال الصحية في البواخر التي ينقلون عليها ويعطى لكل حاجٍّ مضاعف المساحة التي تعطى لهُ اعتيادياً على ظهر الباخرة

ثالثاً البواخر التي تنقل الحجاج من بياي تمنع من الاختلاط بالمدينة واذا كان لا بد من ذلك يجب ان تبقى خمسة ايام تحت المراقبة

رابعاً ينتقى الاطباء والموظفون الصحيّون في البواخر من ذوي الخبرة الذين كانوا في وظائف الحكومة ولا يكون للشركات صاحبة البواخر سلطة عليهم بل يكونون تحت سلطة مصلحة الصحة في الموانى التي يسافرون منها ويساعدهم في الباخرة معاونون يقيمون مع الحجاج ويراقبونهم واذا حصلت اصابة بالكوليرا مدة السفر وجب على القبطان اعادة الباخرة الى بياي وانزال الحجاج منها فيعودون الى اوطانهم ويمنعون من السفر تلك السنة وتمنع الباخرة من قبول غيرهم من الحجاج

خامساً اذا حدثت اصابات في جزيرة قران يمنع الحجاج الذين ظهرت بينهم الاصابات من استئناف السفر الى مكة

اما اذا كانت الكوليرا خفيفة الوطأة في بياي فلا داعي لعزل الحجاج قبل سفرهم بل يراقبون مدة السفر كما لو كانت الكوليرا شديدة واذا حدثت اصابات في الباخرة او في جزيرة قران وجب اعادة الحجاج الى اوطانهم ولا يسمح لهم بتتميم فريضة الحج تلك السنة . ولي الأمل انهُ بهذه الوسائل يمنع انتشار الكوليرا في الحجاز

وسأتي في العدد التالي على ملخص وصف نوبائي سنة ١٨٩٣ و ١٨٩٥ والاحتياطات الصحية التي يشير باتخاذها في مكة